

النشاط الاقتصادي لآل خليفة في الزبارة

(١١٨٠ - ١١٩٨ هـ) (١٧٦٦ - ١٧٨٣ م)

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد :

فقد تناول هذا البحث استقرار عتوب (آل الصباح وآل خليفة) في الكويت ليكون القارئ على علم ودراية ، لمعرفة تطور تحركات آل خليفة المصاحبة لإخوانهم في الكويت حتى استقرارهم في الزبارة ، كمدخل لارتباطهم التاريخي معاً ، وتلازمه حتى لانقفز إلى بيان النشاط الاقتصادي لآل خليفة ، دون إغفال النشاط الاقتصادي لآل الصباح في الكويت .

لذلك يعد النشاط الاقتصادي لآل خليفة في مدينة الزبارة من أهم الإنجازات في تجارة اللؤلؤ وصيده التي تحول منها آل خليفة من مجتمع بدوي إلى مجتمع حضاري ، فاصبحوا بفضل هذه التجارة التي تدر عليهم المبالغ الطائلة من أصحاب الأموال الكبيرة ومن أغنياء تلك المنطقة ، وهذا ما جعلهم يقرضون المال لأصحاب السفن العاملة بالغوص مقابل أو نظير احتجاز نسبة معينة من اللؤلؤ .

ومما زاد في ثرائهم كذلك تشجيع التجارة الحرة للتجارة في ميناء الزبارة دون أن يفرضوا أي ضرائب على البضائع الواردة إليه ، وهذا العامل جعل التجار يفضلون التعامل مع الزبارة دون غيرها من الموانئ الأخرى .

كما أنّ نشاط آل خليفة التجاري في الخليج العربي عبر القوافل البرية

الدكتور :
خلف بن
دبـلان
الوديناني *

* بكالوريوس في التاريخ الإسلامي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية من جامعة الملك عبد العزيز شطر مكة المكرمة عام ١٤٠٠ هـ .

- ماجستير في التاريخ الحديث من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، عام ١٤٠٥ هـ .

- دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية من الجامعة نفسها عام ١٤١٢ هـ .

- يعمل الآن أستاذاً مشاركاً في كلية الشريعة - قسم التاريخ والحضارة بجامعة أم القرى .

كان لا يقل أهمية عن نشاطهم التجاري عن طريق الملاحة البحرية، لذلك لم يتأثر نشاط آل خليفة الاقتصادي بالصراع والمنافسة حولهم القائم بين فرنسا وبريطانيا حول السيطرة على البحر الأحمر ؛ لأنهم لم يعتمدوا في تجارتهم على البضائع المحمولة على السفن الإنجليزية والأوربية الأخرى ، بل اعتمدوا كلياً على سفنهم الخاصة .

وقد كسب أهل الزبارة (آل خليفة) أثناء ذلك التنافس والصراع المذكور أهمية خاصة حيث رأى الإنجليز أنه من الأسلم لبريدهم أن يسافر مع المراكب العربية لانشغالهم بالصراع مع فرنسا ، فزاد ذلك من شهرة ونشاط عتوب آل خليفة الاقتصادي.

فأصبحت الزبارة منطقة تجارية يؤمها كل التجار من الأقطار العربية والأجنبية، لسهولة ومرونة نظامها التجاري ، إضافة إلى تقدمهم في صناعة اللؤلؤ وصيده وتسويقه ؛ لذلك علا شأن آل خليفة في الزبارة وهو موضوع البحث الذي عظمت فيه تجارتهم ونمت قوتهم البحرية على مدى فترة البحث .

العتوب في الكويت ونمو تجارتهم كمدخل لدراسة النشاط الاقتصادي

لآل خليفة في الزبارة :

اختلف الباحثون في أصل العتوب الذين هاجروا من وطنهم الأصلي الهدار بالأفلاج^(١) نتيجة لبعض الخلافات التي نشأت بينهم وبين أبناء عموماتهم بطن من جميلة^(٢) وقد حطوا رحالهم في قطر تحت حماية بني خالد^(٣) .

(١) علي أبا حسين : دراسة في تاريخ العتوب ، الوثيقة ١٤ ، ص ١ ، ص ٨٣ .

فائق حمدي طهوب : تاريخ البحرين السياسي - الكويت : منشورات ذات السلاسل ، ١٩٨٣م ، ص ٣٤-٣٥ .

(٢) للمزيد من المعلومات انظر : عبدالعزيز الرشيد : تاريخ الكويت - بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٨م ، ص ٣٥ .

(٣) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر - ط ١ - الكويت : منشورات دار السلاسل ، ١٩٧٨م ، ج ١ ، ص ٩٨ .

والعتوب هي قبيلة تتكون من ثلاثة فروع رئيسة وهم :

- آل الصباح - وآل خليفة - والجلاهمة^(١) ، وهذه القبيلة تنقسم إلى عدة أفخاذ أكبرها جميلة^(٢) .

ولكن القلقشندي ينفي اختلاف الباحثين في أصل العتوب ، حيث يؤكد بأن جميلة بطن من بطون بني هلال بن عامر بن صعصعة^(٣) .

وتنقسم جميلة إلى عدة فروع أشهرها بنوعتة^(٤) وهم بطن من بطون رباح ابن هلال بن عامر بن صعصعة^(٥) بن معاوية بن بكر بن هوازن بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان بن مضر^(٦) .

ومهما يكن فقد رحلت فيما بعد أسر العتوب من قطر بعد أن حصل بينهم بعض المشاحنات مع آل مسلم حكام قطر من قبل بني خالد ، فاجبروهم على مغادرة البلاد^(٧) وتفرقوا على الشاطئ الشرقي ، وعلى جزيرة قيس وسط العرب ، وفي نهاية

(١) ج ، ج ، لوريير : دليل الخليج : أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر ،

وطبع الكتاب على نفقته ، سلا في ١٠ / أكتوبر ١٩١٤ م ، ج ٣ ، ص ١٥٠١ - ١٥٠٢ .

(٢) محمد خليفة النبهاني : التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية - مصر : مطبعة المحمودية ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(٣) أبو العباس أحمد القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب : تحقيق إبراهيم الأبياري - ط ٢ - بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٢١٩ ، ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٤) محمد خليفة النبهاني : المصدر السابق .

(٥) القلقشندي : المصدر السابق .

(٦) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٧) عبدالعزيز الرشيد : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

- بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

- فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣٨ .

الأمر عادوا ليجتمعوا مرة أخرى في الكويت أسرة تلو الأخرى حتى اكتمل عقد هذه الأسر الثلاث^(١).

وصول هذه الأسر إلى الكويت يعني بداية تكوين عتوب الكويت ، ولكن لم يستطع أحد من المؤرخين التحديد الفعلي لتأسيس دولة الكويت ، ولكنهم يجمعون على أنها تأسست قبل القرن الثامن عشر الميلادي^(٢).

وقد أكد ذلك القول بأن العتوب كانوا في البحرين قبل استقرارهم ماورد في مخطوط لؤلؤة البحرين في ترجمة صاحبها عندما أرّخ وقائع العتوب في البحرين بقوله : « قضية القبيلة المعتدية » - وعام تلك شتوها فاحسبه^(٣).

وبحساب الجملّ لمجموع حروف «شتوها» يصبح التاريخ سنة ١١١٢هـ / ١٧٠٠م، وبهذا يتضح لنا أن تواجد العتوب في البحرين كان قبل هذا التاريخ حيث استقروا وتعودوا على ركوب البحر وقيادة السفن بمهارة فائقة ، وهذا يحتاج إلى حقبة زمنية ليست بالقصيرة .

(١) يوسف عيسى القناعي : صفحات من تاريخ الكويت - ط ٥ - الكويت : ذات السلاسل ،

١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، ص ٨ .

- عبدالعزيز الرشيد : المرجع السابق .

- فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢) أحمد مصطفى أبوحاكمة : تاريخ شرقي الجزيرة العربية ؛ ترجمة محمد أمين عبدالله -

بيروت : دار مكتبة الحياة ، ص ، ٧٢ .

- صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٣م ،

ص ٥٥ .

(٣) يوسف أحمد الدرازين : لؤلؤة البحرين ، مخطوط - إسطنبول : مكتبة السليمانية ، تحت رقم

(٤٦٣٤) ص ٢٤٠ .

وفي هذا الصدد يواصل علي أبا حسين حديثه قائلاً : بأنه لم يستطع المؤرخون تحديداً تاريخياً بعينه لبداية هجرة العتوب ولاحتى وصولهم إلى سواحل الخليج العربي، أو زمناً ثابتاً لدخولهم قطر ، ولاوقتاً معيناً لتواجدهم في البحرين، ولعل السبب في ذلك هو اعتمادهم على مصادر ووثائق غربية في معظمها^(١) ، وهذا صحيح لجهلهم بتاريخ المنطقة والتركيبية السكانية التي يتألف منها سكان الخليج العربي .

أما الأسباب التي جعلت العتوب يتجهون إلى الكويت فتكشفها وتفسرها الوثيقة العثمانية المؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣هـ / ١٧٠١م التي تشير إلى أن العتوب (آل صباح وآل خليفة) ومن معهم في قطر قد استقروا قبل توجههم إلى الكويت في البحرين ، وقد شاركوا في حرب تحرير البحرين من العجم ، ولكنهم خسروا المعركة وحوالي أربعمئة رجل ، لذلك رحلوا إلى مدينة البصرة وهم نحو ألفي بيت ، ومعهم مئة وخمسون سفينة .

ولما وصلوا إلى البصرة اتصلوا بواليها العثماني (علي باشا) يطلبون منه المساعدة ضد الدولة الفارسية ، بعد محنتهم معهم وقتل الكثيرين منهم ، والسماح لهم بالسكنى في البصرة ، تحت حماية السلطان العثماني .

فكتب والي البصرة إلى السلطان في إسطنبول مصطفى الثاني (١١٠٧ - ١١١٥هـ / ١٦٩٥ / ١٧٠٣م) يخبره بأن العتوب والخليفات ومن معهم من القبائل الأخرى جاءوا إلى البصرة يقولون :

«نحن مسلمون وتركنا العجم وجئنا إلى بلاد سلطان الإسلام ، والتجأنا إليه وهذا هو رجاؤنا» فهم يريدون الاستقرار في البصرة ، ولكننا حتى الآن لم نعين لهم مكاناً يسكنون فيه ، وسيبقون على تلك الحال ، ويقترح الوالي ، إذا أرادوا أن يسكنوا

(١) علي أبا حسين : الوثيقة ، ١٤ ، س ١ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

في البصرة فسنعين لهم المكان^(١) فنزلوا في صبية وأم أقصر ، غير أن السلطات العثمانية أجلتهم عن تلك المناطق ، فأخذوا يتنقلون مابين قطر والأحساء حتى استقر بهم المقام في الكويت تحت زعامة أسرة آل الصباح^(٢) .

ويؤكد المؤرخ فائق طهوب على هذا المعنى ، بأنهم نزلوا أم أقصر ، ولكنهم ارتحلوا منها إلى الكويت لشعورهم بعدم الحماية الكافية من الدولة العثمانية حين رأوا بأن نزولهم في الكويت تحت حماية بني خالد يمنحهم الأمن والاستقرار أكثر كما كانوا في قطر من قبل ، للتفرغ لتكريس جهودهم في النشاط التجاري والغوص للبحث عن اللؤلؤ وهو موضوع بحثنا^(٣) .

وقد كانت الكويت في تلك الحقبة تحت نفوذ سليمان بن محمد آل غرير رئيس الأحساء وبني خالد (١١٤٩/١١٦٦هـ) (١٧٥٢/١٧٣٦م) وقد نزل العتوب الكويت بموافقة بني خالد فأصبحوا تحت حمايتهم ، وبعد وفاة سليمان ١٧٥٢م ، وقيام الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة من بني خالد وبدء النفوذ السعودي القادم من نجد لضم الأحساء ، جعل العتوب في تلك الحقبة يتمتعون بنوع من الاستقلال عن حكم بني خالد^(٤) .

وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ صلاح العقاد ، أنه لايعرف بالضبط تحديداً لتاريخ تأسيس دولة العتوب ولكن المعروف أن مؤسسها الأول هو الشيخ صباح الأول

(١) وثيقة رقم (١١١) من دفاتر المهمة ، صفحة ٧١٣ ، من والي البصرة علي باشا إلى السلطان العثماني (مصطفى الثاني) ، أرشيف رئاسة مجلس الوزراء العثماني بإسطنبول .

(٢) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٣) فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤٠-٤١ .

(٤) أحمد مصطفى أبوحاكمة : تاريخ الكويت ، الجزء الأول ، القسم الأول - الكويت : مطبعة حكومة الكويت ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص ١٠٧-١٠٨ .

ابن جابر (١١٦٦/١١٧٦هـ) (١٧٥٢/١٧٦٢م)^(١).

وذلك حين استقرت الأسر الثلاث في الكويت ، اتفقوا على أن يتولى الشيخ صباح بن جابر زعيم آل الصباح الحكم والرئاسة ، والشيخ خليفة بن محمد زعيم آل خليفة شئون التجارة والمال ، والشيخ جابر زعيم الجلاهمة شئون البحرية ، على أن يتقاسموا ماتدره عليهم هذه الأعمال من أرباح بالتساوي .

وحين اتسع النشاط التجاري ، وأخذت القبائل العربية تتوافد إلى الكويت عن طريق الهجرات ، أصبحوا بحاجة إلى من يرضى مصالح أهلها ويصرف شئونها لفصل المنازعات ، فاختاروا صباح بن جابر حاكماً عليهم وبايعوه على السمع والطاعة عام ١١٦٦هـ/١٧٥٢م^(٢).

وبعد وفاته عام ١٧٦٢م تولى بعده ابنه عبدالله بن صباح ، الذي امتد حكمه حتى عام (١٢٣٤هـ) (١٨١٣م) ، وفي عهده تطور العتوب في الكويت إلى مجتمع حضري يشتغل بالتجارة والغوص على اللؤلؤ وصناعة بناء السفن^(٣).

وعلى أية حال فقد زادت مكانة الكويت وأهميته ، ونمت ثروته نمواً عظيماً ونجح العتوب (آل الصباح وآل خليفة) عن طريق تحالفهم البحري مع سواهم من القبائل البحرية المجاورة في أن يدعموا وجودهم إثر حماية بني خالد لهم الذين كانوا حتى وقت قريب آنذاك يهيمنون على الساحل الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة العربية .

(١) التيارات السياسية في الخليج العربي : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢) فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤١ .

- نورية محمد الصالح : علاقات الكويت السياسية بشرقي الجزيرة العربية والعراق

العثماني - ط ١ - الكويت : دار ذات السلاسل ، ١٩٧٧م ، ص ١٨ .

- أبوحاكمة : تاريخ شرقي الجزيرة العربية ، ص ٧١ .

(٣) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

ومن ذلك التاريخ ظلت الكويت تشق طريقها في عالم النمو والتقدم فنشطت تجارتها مع العراق والهند واليمن^(١).

فالموقع الجغرافي الممتاز للكويت ومينائها الفريد الذي يقع على طرف الخليج الشمالي الغربي كانا عاملين من العوامل المساعدة في تنشيط التجارة وتطورها السريع ، لأن أرض الكويت غير صالحة للزراعة ، وكانت أرضها فقيرة حتى من أشجار النخيل ، حتى أن مياه الشرب فيها قليلة وشحيحة معدومة ، تجمع بين العذوبة والملوحة والمرارة في نفس الوقت^(٢) . وبمعنى آخر تعاني من قلة الماء الصالح للزراعة؛ إذ ليس في الكويت ماء معين ، ولا عيون فيها الماء تقي بحاجة المزارعين ، بل جل ما فيها من آبار يتوقف على الأمطار ، فإذا جاء المطر صارت هذه الآبار عذبة وصالحة للزراعة ، وإذا قلّ المطر أو انقطع صارت مالحة لاتصلح لذلك.

فلهذا اقتصر زارع الكويت على زرع الخضروات التالية :

(الطماطم ، والبطيخ ، والقثاء ، ، والبصل ، والكراث ، والفجل) وماشابه ذلك؛ لأنّ هذه الخضروات تثمر بعد مدة قليلة ، قبل أن يتبدل ماء الآبار ، أما ماء الشرب فيأتي عادة من آبار تقع خارج الكويت^(٣).

لذلك كان لهذه البيئة الصحراوية غير الصالحة للزراعة لجفافها المتواصل في الكويت أثره في توجه السكان نحو البحر والغوص للبحث عن اللؤلؤ والمرجان ، وقد ساعدهم هذا على الاتصال بغيرهم من الشعوب في جنوب شرقي آسيا وشرقي أفريقيا، كما دفع تلك الأعداد الكبيرة من سكان تلك المناطق إلى القدوم إلى الكويت

(١) لوريير : المرجع السابق ، ص ١٠٥٢ .

(٢) أبوحاكمه : المرجع السابق .

- صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٣) يوسف القناعي : المرجع السابق ، ص ١٢ .

للعمل في مواسم الحرف البحرية ، فأصبحت الكويت ملتقى لكثير من سكان تلك المناطق^(١).

وكان رخاء الكويت آنذاك يسير في اتجاه عكسي مع رخاء البصرة ، التي احتلها الإيرانيون ، فتحولت تجارة الهند التي كانت تتخذ طريقها عبر بغداد وحلب ثم إسطنبول إلى الكويت وذلك ما بين ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م - ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م .

بل تعدت هذا التاريخ ففي سنة ١١٩٦هـ/ ١٧٨١م كان بعض التجار لا يزالون يفضلون طريق القوافل مباشرة من حلب إلى الكويت لتفادي دفع الضريبة التي فرضها باشا بغداد على التجارة المارة عن طريق البصرة^(٢).

ثم زاد من ثراء الكويت اهتمام أهلها بالغوص بحثاً عن اللؤلؤ والمرجان والاتجار به . كل تلك العوامل ساعدت على نمو وازدهار تجارة الكويت في ذلك المجال^(٣).

غير أن كل هذه العوامل ما كانت لتوفر للكويت تلك النشأة السريعة والسير الحثيث إلى احتلال المكان الذي تبوأته في الخليج لولا موقعها الجغرافي الممتاز على الطريق التجاري الصحراوي بين الخليج العربي وبلاد الشام .

وقد أشار أحد التقارير الإنجليزية عام ١٨٤٥م الذي وضعه أحد موظفي حكومة بومباي ، إلى أن ميناء الكويت يستطيع أن يستوعب جميع سفن الأسطول

(١) نورية الصالح : المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٢) Selection From State papers Bombay regarding , the east India connection , (٢) with the persion GULF. P. 291.

(٣) Selection From State papers Bombay extracts of the agent , and council at Bassrah to the council of Directors, 1773, P. 78.

Neibuhr : Travel, through , vol. 2- 1992. P.P. 122-129 .

البريطاني دون أن تشعر تلك السفن بمضايقة من رسوها مجتمعة فيه^(١). ولعل أول ذكر للكويت كان في سجلات شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، فقد أوردته أحد رجال الشركة وهو الدكتور إيفز عندما كان قادماً من الهند إلى إنجلترا عن طريق الخليج العربي ، نزل جزيرة (خرج Kharij) في ضيافة البارون "كنبهاوزن" رئيس الوكالة الهندية التجارية في الخليج العربي ، وكان ذلك عام ١٧٥٨م، ويقول إيفز أنه سأل البارون عن أسرع طريق يسلكه حتى يصل إلى حلب في مدة وجيزة فأجابه البارون أن أسرع طريق هو طريق القرين (الكويت)^(٢) .

لذلك أصبح الكويت محطة مهمة للقوافل المسافرة بين حلب وشرقي الجزيرة العربية ، ومن هذه الأهمية استمد الكويت نموه ونشاطه التجاري منذ ذلك التاريخ المبكر من عمره^(٣).

كانت القوافل المارة بالكويت تحمل بضائع الهند التي كانت تصل الكويت على السفن الكويتية ومعها كذلك الركاب المسافرون إلى حلب ممن يكونون قد وصلوا شمالي الخليج العربي قادمين من الهند أو جنوب الخليج العربي^(٤).

ولاشك أن شيخ الكويت كان له ولتجار بلده اليد الطولى في نقل التجارة والركاب عن طريق البحر ، ثم القوافل من الكويت وإليها مما زاد ثراء أهل الكويت

(١) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٩٦-٩٨ ، نقلا عن : تقرير كمبول مساعد المقيم البريطاني في

بوشهر ، من مختارات حكومة بومباي ، (٢٤) ، ص ١٠٩ .

يوسف القناعي : المرجع السابق ، ص ٦٨-٦٩ .

(٢) أبوحاكمة : تاريخ شرقي الجزيرة العربية ، ص ٨٠-٨١ .

- نورية الصالح : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) أبوحاكمة : تاريخ الكويت ، المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٤) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ١٠٩-١١٠ .

وأفادهم فائدة مادية كبيرة جعلته يرتبط بعلاقات جيدة مع جيرانه العرب النازلين على الطريق الصحراوي من الكويت إلى حلب عبر محطة الجهرة للقوافل المتجهة من الكويت إلى البصرة وإلى الشام عبر الطريق البري^١ ، أما الطريق البحري فيبدو أن نفوذه كان قائماً على الجزر القريبة من الكويت^(١) .

أما مصادر ثروة الكويت فلعل تجارة الكويت المشار إليها آنفاً عبر الخليج العربي من وإلى الهند التي كانت تحملها سفن التجار الكويتيين وغيرهم ثم القوافل التي تأتي إلى الكويت^(٢) كانت تمثل مصدراً من مصادر الدخل الأكبر بالنسبة لتلك المدينة ، وكانت صناعة اللؤلؤ والغوص تمثل مصدراً آخر من مصادر دخل الكويت ، وقد بلغ عدد القوارب العاملة في هذا المجال في الكويت ثمانمائة قارب تقريباً في ذلك الوقت^(٣) . في حين أن عتوب الكويت قد اعتادوا على الإبحار جنوباً في الخليج العربي طلباً للغوص لجلب اللؤلؤ من ساحل بني خالد في اتجاه البحرين ، وبالطبع لم يكن آل صباح وحدهم التجار الذين نقلوا تلك البضائع أو سيروا السفن للغوص على اللؤلؤ ، بل إنه قد أسهم معهم وشاركهم في هذا المسار ممن سكن الكويت من الأسر العتبية الأخرى^(٤) وخاصة عتوب (آل خليفة) المسؤولين عن التجارة وشئون المال .

(١) Nibuhr , corten , Description , de l'Arabie , Fast surded observations, Propre set desavis recueillis dans leslieux memes. Amsterdam. 1774. p. 286-287.

(٢) ذكر الدكتور إيفز في رحلته (٢٢٢) أن القافلة التي كان يزعم السفر معها إلى حلب في صحبة رفاقه كانت تتألف من خمسة آلاف جمل يرافقها ألف مسافر مابين جمال وغير جمال ، انظر أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ١١٣ ، حاشية (٨٢) .

(٣) Niebuhr , carsten , description, p. 296-297.

(٤) يوسف القناعي : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

النشاط الاقتصادي لآل خليفة في الزبارة (١١٨٠-١١٩٨ هـ / ١٧٦٦-١٧٨٣ م):

بعد أن بلغت الكويت درجة عظيمة من التقدم والتطور والرخاء التجاري في الخمسين سنة الأولى من عمرها أي من (١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م - ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م)، وكثر سكانها بدأوا في التشاحن فيما بينهم بسبب التقدم في الثراء، وتكدس الثروة مما جعل الجماعة المسئولة عن التجارة، وهم آل خليفة يبدون رغبتهم في الانفصال عن إخوانهم العتوب في الكويت لينفردوا بذلك الثراء الناجم عن التجارة^(١).

ويعني ذلك نجاح تحالف آل الصباح وآل خليفة في شراكتهم ونشاطهم التجاري في الغوص على اللؤلؤ وصناعته في بداية الأمر؛ لارتباط تاريخهما وتحركاتهما معاً لبناء الكويت حتى أصابها الثراء العظيم، عند ذلك بدأ آل خليفة يفكرون في الانفصال والاستقلال عن إخوانهم عتوب الكويت للاستقرار في البحرين أو الزبارة. وكان آل خليفة في ذلك الوقت تحت سلطنة محمد بن خليفة الذي ينتسب إليه آل خليفة اليوم حكام البحرين، وقد تزعم حركة الانفصال، فبين لآل صباح والجلاهمة القدر الكبير من الثراء الذي يمكن أن يحصلوا عليه جميعاً لو نزل هو وجماعته من العتوب (آل خليفة) بالمنطقة الغنية باللؤلؤ الواقعة على ساحل الخليج بالقرب من البحرين وقطر «الزبارة» ثم حاول محمد بن خليفة، إقناع الشيخ عبدالله الصباح حاكم الكويت آنذاك أن يوافق على هجرته، فوافق الشيخ وارتحل مع عدد كبير من أسرته^(٢).

ومما لاشك فيه، فإنَّ شراء اللؤلؤ والاتجار به كان المصدر الأساس لثروتهم الحقيقية؛ لذلك فكر آل خليفة وهم الذين اهتموا بشئون التجارة والمال، أن

(١) أبوحاكمة: المرجع السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) أبوحاكمة: المرجع السابق، ص ١٢٨.

الاستقرار بقرب المصدر الأساس لثروتهم ، بل والحصول على النصيب الأكبر منه بأنفسهم من صيد اللؤلؤ بدلاً من الاستمرار في شرائه فهو خير لهم ، لذلك آثروا الهجرة إلى تلك المنطقة ليكونوا بجواره^(١).

فاتجه آل خليفة بقواربهم في بداية الأمر إلى البحرين حتى وصلوا إليه ، ولكنهم منعوا من النزول ، فواصلوا السير إلى «الزبارة» ونزلوا فيها سنة ١٧٦٦م ١١٨٠هـ ، وقد كانت البحرين معروفة لدى آل خليفة حتى بعد استقرارهم في الكويت^(٢). وذلك من خلال نقل تجارتهم بحراً بين قطر والبحرين والأحساء وقد وقع اختيارهم على الزبارة لموقعها التجاري المهم لقربه من مفاصات اللؤلؤ ووقوعه على جوف عميق به جزيرة صغيرة على الشاطئ الغربي من شبه جزيرة قطر^(٣).

وعند وصول آل خليفة إلى الزبارة لم يجدوا أي معارضة من قبيلة آل مسلم فاستطاع الشيخ خليفة بذكائه ودهائه أن يجمع الناس حوله ، وذلك بإقراضهم الأموال مقابل شرائه لمحصول اللؤلؤ ، وزيادة في توثيق الروابط والمودة اتجه إلى المصاهرة من سكان قطر وكسبهم إلى جانبه ، وبهذا العمل استطاع أن يفرض احترامه في مدينة الزبارة^(٤).

إلا أن التقدم الذي أحرزته الزبارة كان سريعاً للغاية مقارنة مع الوقت الذي استغرقه تحويل الكويت من مركز صغير لصيد الأسماك إلى مدينة مهمة في الخليج نحو خمسين سنة^(٥). في حين أن الزبارة قد أصبحت من أهم موانئ الخليج العربي

(١) P. R. O./F. O : 78 / 5108, No. 249.

(٢) أمل الزباني : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٣) فائق طهوب : المرجع السابق .

(٤) أمل الزباني : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٥) من مختارات حكومة بومباي (٢٤) ص ٣٦١-٣٦٣. I.O. R. L/Pand S/20 (227).

في مدة وجيزة لاتزيد على عشر سنين، وقد أدى هذا التقدم إلى منافستها التجارية لسائر موانئ الخليج العربي ، ومن أجل ذلك بيتت لها موانئ الساحل الفارسي بالذات وأضمرت لها السوء ، ولعل مرد ذلك أن مدينة الزبارة قد جذبت جزءاً كبيراً من تجارة البحرين التابعة في ذلك الوقت لعرب بوشهر التابعين للفرس^(١).

وقد زاد النمو السريع الذي حققته الزبارة في خلال مدة قصيرة من عمرها ، ويرجع ذلك الفضل في المقام الأول إلى تجارة اللؤلؤ ؛ لذلك كان اختيار آل خليفة للزبارة موفقاً ، لما تتمتع به من موقع ممتاز ومهم يقع في مواجهة البحرين وقريبة من سواحل بني خالد في الأحساء وقطر^(٢) . إضافة إلى امتداد المغاصات من الكويت حتى ساحل عمان ولكن أفضلها هو الموجود حول جزر البحرين ، ويفسر ذلك لوجود ينابيع مياه عذبة تحت سطح البحر^(٣) . وهذه المنطقة من أغنى بقاع العالم والخليج العربي في صيد اللؤلؤ وتجارته . ولقد كان حظ الزبارة من تلك التجارة في بادئ الأمر قليلاً ، غير أن ذلك القليل سرعان ما ازداد ونما نمواً مضطرباً^(٤).

وبفضل هذه الصناعة تحول آل خليفة من مجتمع بدوي إلي مجتمع حضاري رأس مالي حتى أنهم أصبحوا يقرضون أصحاب السفن التي بالغوص نظير احتجاز نسبة من اللؤلؤ . وتفوقوا في هذا المجال على آل مذكور ممثلي حكام الفرس على البحرين ، فكان من أسباب النزاع الذي انتهى باستيلاء آل خليفة على تلك الجزر(البحرين)^(٥).

(١) لوريمر : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٥١ .

(٢) عثمان بن سند البصري : سبائك المسجد في أخبار أحمد رزق الأسعد ، ص ٩ .

(٣) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٤) عثمان بن سند البصري : المصدر السابق ، ص ٩-١٠ .

(٥) صلاح العقاد : المرجع السابق .

وقد كان التاجر الكويتي الشهير «رزق» من أوائل من شارك في عمارة الزبارة، حين قدم من الأحساء بدعوة من خليفة بن محمد أشرف بن عتبة بعد وفاة والده محمد بن خليفة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م مؤسس أسرة آل خليفة عندما هاجر إلى الزبارة مع جماعته كما سبق ذكره سنة ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م ، ورزق هو الذي أشار على خليفة ابن محمد باختيار موقع الزبارة وعاضده وساعده في بناء مدينة الزبارة وتعمير المساجد وتشبيد المدارس ونشر العدل والسلام فيها ثم رأيا أن يشجعا التجار على النزول في الزبارة ، فأصدروا أوامرهما بالإعفاء عن البضائع والأموال الواردة إليهما من المكوس^(١) . وقد نجحا بهذه الفكرة في جذب التجار للزبارة ، وهذه تعد من إحدى عوامل نجاح تجارة هذه المدينة وتطورها السريع .

ويؤيد ذلك القول من حيث الإعفاء من المكوس ، ماورد في تقرير خاص بتجارة الخليج الذي كتبه أحد وكلاء الشركة الإنجليزية عام ١٧٩٠م ، إذ يقول : «إن حكومة الزبارة لاتجمع أي نوع من الجمارك على السلع التجارية»^(٢) ، أي الواردة إليها . وقد عمّرت الزبارة وازدهرت في عهد الشيخ خليفة بن محمد وكانت بداية عهدها الذهبي وانتقل إليها كثير من وجهاء وأثرياء البصرة والأحساء وغيرها من البلاد المجاورة لسوقها الرائجة بكثرة خيرها وتسهيل حكومتها في تشجيع التجارة فيها^(٣) .

ولاشك أن سياسة آل خليفة في اتباع وتشجيع التجارة الحرة في ميناء الزبارة دون فرض أي ضرائب على البضائع المستوردة إليه ، قد أثر ذلك في تجارة الميناءين

(١) عثمان بن سند البصري : المصدر السابق

(٢) أبوحاكمة : المرجع السابق ، نقلاً عن (منتخب سلعها) ص ٤٠٩ .

(٣) الوثيقة ، العدد الثالث ، السنة الثانية ، رمضان ١٤٠٣هـ / يوليو ١٩٨٣م ، ص ٢١ .

المجاورين للزيارة الواقعة تحت نفوذ بني خالد ، وهما ميناء العقير والقطيف ، ففي هذين الميناءين كانت المكوس المفروضة على البضائع المستوردة ليست عالية إذا قورنت بالمكوس في موانئ أخرى تجاورها في الخليج ، ذلك لأن حكومة بني خالد كانت تحسن معاملة التجار الذين يتمتعون فيها بالحماية الكاملة لممتلكاتهم وأشخاصهم ، وكانت المكوس التي تجبى منهم معتدلة ، وعلى البضائع المستوردة غير أن سياسة التجارة الحرة التي اتبعتها عتوب آل خليفة في الزيارة لم يكن لها نظير حتى في الكويت ، فحكومة الكويت ماتجمعه من مكوس على تجارة الواردات مشابه تماماً لما يأخذه بنو خالد في ميناء القطيف ، وهذا بعكس ماتفرضه حكومة مسقط من مكوس التي تصل إلى حد ٦٥٪، وعلى جميع الواردات بما في ذلك المواد التموينية.

أما في ميناء البصرة ، فقد كانت حكومتها تجني المكوس على جميع الواردات دون استثناء سواء كانت هذه البضائع قادمة من بغداد براً أو عن طريق الخليج بحراً، فقد كانت تأخذ على البضائع الواردة براً مكوساً تتراوح ما بين نسبة (٧٥ إلى ٨٥٪) ولكن المكوس المفروضة على الأقمشة الواردة عن طريق البحر من بغداد كانت تقدر بنسبة (٧٥٪) أما مكوس السلع المختلفة الأخرى (كالتوابل) وماشاكلها ، فكانت هي الأخرى بنسبة (٨٥٪) أما البضائع المصدرة براً إلى حلب فكانت تدفع عنها مكوساً مماثلة لما سبق .

إلا أن البضائع المصدرة عن طريق البحر فيدفع التجار عنها مكوساً تقدر بنسبة (٥٥٪)^(١).

غير أن السياسة التجارية الحرة التي اتبعتها آل خليفة في الزيارة وانفردت بها كما سبق ذكره ، جعل التجار يفضلون التعامل مع الزيارة دون سواها عند نقلهم

(١) (من مختارات حكومة بومباي (٢٤) ص ٣٦٣). I. O. R, L/P and S/20 E 227.

لتجارة الهند وبلاد العرب إلى سوريا والولايات العثمانية^(١). عندئذ قاموا باستيراد البضائع من كافة الجهات لاستهلاكهم المحلي ثم أعادوا تصدير الفائض عن حاجتهم إلى الأحساء ونجد ، لأنّ الأحساء كانت منغمسة في حروب طاحنة بين بني خالد وآل سعود في نجد مما جعل آل خليفة ينفردون بالتجارة والاهتمام بها فانتعشت تجارة الزيارة في فترة وجيزة^(٢).

وكانت هذه النتيجة الحتمية لهذا التفضيل نمواً سريعاً شهدته الزيارة فسارعت جماعات كبيرة من عتوب الكويت بالهجرة إلى تلك المدينة العتبية الجديدة لتتال نصيبها من هذا الثراء الذي حصل عليه إخوانهم آل خليفة ، وكان على رأس هؤلاء المهاجرين الجلاهمة^(٣). حيث استقبلهم آل خليفة بترحاب وكرم ضيافة في الزيارة بقطر وقاموا بتخصيص المخصصات لكل منهم ما يكفيهم في بادئ الأمر ولم تلبث أن انفجرت الخلافات بين الجلاهمة وآل خليفة في الزيارة ، ونتيجة لتلك الخلافات انفصل الجلاهمة ورحلوا إلى قرية الرويس المجاورة ، ولكنهم أيبدوا بعد ذلك على يدي آل خليفة وأنصارهم ولكن فرّ من بقي منهم إلى ميناء خورحسان بفارس^(٤).

ولاشك أنّ ازدهار أية مدينة لا بد أن يكون وراءه أو خلفه أسباب ، فمن أسباب ازدهار مدينة الزيارة وتجارتها عوامل مهمة منها :

١ - قيام الزيارة في منطقة كانت تسيطر عليها حكومة بني خالد التي امتازت بميلها

(١) (من مختارات حكومة بومباي (٢٤) ص ٣٦٣-٣٦٤ I. O. R, L/P and S/20 E 227.

(٢) فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٣) Francis warder : Selection From of Bombay, Goverment, P. 362-373.

(٤) خالد سعود الزيد : الكويت في دليل الكويت - ط ١ - الكويت : شركة الربيعان للنشر ، ج ١ ، ص ٤٢ .

الشديد إلى السلم وتشجيعها للتجارة والنشاط التجاري الكبير التي كانت تقوم به الشركات التجارية والأوربية .

٢ - انعدام وجود قوى كبرى تتحكم في منطقة الخليج وتسيطر على تجارته ، لذلك أخذ بنو خالد على عاتقهم المحافظة على أمن واستقرار المنطقة^(١).

فقد استطاعوا حماية شرقي الجزيرة من خطر بدو وسط الجزيرة لأهميتهم في تاريخ المنطقة ومن هنا استطاعت مدن شرقي الجزيرة أن تنعم بالاستقرار والحماية لذلك ازدهرت تجارتها وبالتالي نشأت مدن العتوب في الشمال (الكويت) وفي الجنوب (الزبارة) في تلك الفترة من (١١٦٧-١٢١٠هـ)^(٢) على الاستقرار الدائم ؛ لذلك اتجهت للاشتغال بالتجارة .

٣ - أما القوى الثلاث الكبرى فلم يكن لها أثر معاكس في إيقاف نمو الزبارة وازدهارها في القرن الثامن عشر الميلادي ، فالفرس لم تكن لديهم قوة بحرية كما هو معروف ، فكانت في حالة اضطرابات داخلية ولم يتمتع الفرس بالسلم الداخلي في بلادهم حتى يفكروا في مهاجمة الزبارة ، والأتراك العثمانيون لم يكونوا أحسن حالاً من الفرس ويبدو أنهم كانوا لا يفكرون في إثارة عداء بني خالد لوقوع الزبارة في أراضيتهم وذلك بمعاودة الهجوم على الأحساء في هذه الحقبة ، أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فكان يهتمها أن يبقى الخليج العربي في أمان دائم حتى تسير فيه بسفنها حيث تشاء ومتى تشاء^(٣) .

وعلى أية حال فإنّ هناك أيضاً بعض الحوادث التي ساعدت في نمو تجارة

(١) فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤١-٤٢ .

- أبوحاكمة : تاريخ الكويت ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٣) (مقال من مختارات حكومة بومباي ٢٤) ، I.O. R, L/P and S/20 C 227,

العتوب في الزبارة ، وهذه العوامل نجم لها فيما يلي :

أولاً : انغماس منطقة الأحساء في حروب طاحنة مع آل سعود في نجد ساعد في غياب بني خالد عن المنطقة والمنافسة ؛ لذلك بدأ استقلال عتوب آل خليفة في الزبارة عن بني خالد أصحاب السيادة بالتجارة وزودوا الأحساء بفائض استهلاكهم .
ثانياً : الطاعون الذي تعرضت له مدينة البصرة عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م^(١) الذي ترك آثاراً ضارة على سكانها وتجارها^(٢) ، إذ أفنى الطاعون عدداً كبيراً من سكانها وهرب عدد من تجارها إلى موانئ الكويت والقطيف والزبارة فانتعشت بهم الحركة التجارية في مدينة الزبارة والمدن العتبية الأخرى .

ثالثاً : احتلال الفرس للبصرة عام ١١٨٩هـ / ١٧٧٦م ، وامتداد حكمهم لها حتى عام ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م^(٣) على الرغم من تعهدات الفرس لتجار البصرة بالمعاملة الطيبة والحماية إلا أنّ عدداً كبيراً منهم هاجروا إلى الكويت والقطيف والزبارة ، فشجعهم بعد هذه الأماكن عن البصرة وحصارها ، وكذلك عدم تقاضي ميناء الزبارة شيئاً من الرسوم الجمركية على البضائع^(٤) .

ولقد كانت الظروف التي أحاطت بحصار البصرة واحتلالها من قبل الفرس لها الأثر البعيد في تطور الأحوال الاقتصادية الجارية بالكويت والزبارة ، حيث قامت العلاقات المباشرة بين ممثلي شركة الهند الشرقية الإنجليزية والعتوب ، ومن أجل

(١) - Selection From state papers Bombay extracts alher of the agent, and council at Bass- rah to the Count of Directors, 1773. p. 78.

(٢) فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) لوريمر : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ١٨٥٢ .

(٤) فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤٥-٤٦ .

ذلك أصبحت الزيارة محطة من المحطات الرئيسة للقوافل الناقلة للبضائع من البصرة إلى حلب طوال فترة الحصار والاحتلال (١٧٧٦-١٧٧٩م) وقد أدى ذلك الاحتلال الإيراني إلى سرعة نمو مدينة الزيارة فخلال هذه الحقبة تركزت فيها وحدها تقريباً تجارة اللؤلؤ والتجارة عامة ، فأصبحت سوقاً مفتوحاً للتجارة والتجار وهمزة وصل بين شرق الجزيرة العربية والهند^(١) لذلك علا شأنها وتجارها وعظمت قوتها^(٢).

ونظراً لسوء العلاقات بين الفرس والإنجليز في تلك الحقبة فإن كل البضائع الواردة لحساب شركة الهند الشرقية الإنجليزية من الهند إلى حلب ، التي كانت تنقل سابقاً إلى بوشهر ثم البصرة ، غيرت الشركة مسارها وأصبحت تفرغ في الزيارة ، ومنها تحمل بالقوافل إلى حلب ، متجنباً في ذلك طريق البصرة^(٣) .

ومما لاشك فيه أن نمو النشاط التجاري في الخليج عن طريق القوافل عبر الصحراء ، كان له أثره في نشاط عتوب آل خليفة في الزيارة ، ولا يقل عن نشاطهم التجاري عبر الملاحة البحرية ، فبناء قوة عتوب آل خليفة البحرية أدت إلى بسط نفوذهم التجاري في المنطقة ، وهي أحد العوامل التي ربطت بين عتوب الشمال (الكويت) والجنوب (الزيارة) لتكوين وحدة سياسية اقتصادية وهو مايسعون إليه جميعاً^(٤).

(١) رسالة من لاتوش (Latouche) (المقيم بالبصرة إلى ديوان الإدارة في لندن) من سجلات الوكالة، مجلد إيران والخليج الفارسي ، رقم ١٧ ، رقم تسجيل الإرسال ١٢٣٠ ، في ٤ نوفمبر ١٧٨٢م .

- خالد الزيد : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٢) أبوحاكمه : المرجع السابق ، ص ١٧٠-١٧١ .

- خالد الزيد : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٣) أبوحاكمه : المرجع السابق ، ص ٢٨١-٢٨٢ .

(٤) Gouplan. R.. East Africa and its Invaders London, 1938, P.416

لذلك لم يتأثر نشاط آل خليفة التجاري بالصراع أو المنافسة بين فرنسا وإنجلترا حول البحر الأحمر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ، لطريق الخليج العربي في نقل البضائع الهندية إلى أسواق الولايات العثمانية في سوريا وتركيا ، وكان بمقدور الفرنسيين منافسة الإنجليز في أسواق مصر ، لكنهم لم يحظوا بنفس النجاح في أسواق الخليج العربي ، وبالتالي لم يتأثر النشاط التجاري لآل خليفة في الزبارة ، بل زاد نمواً ؛ لأنهم لم يعتمدوا في تجارتهم على البضائع المحمولة على السفن الإنجليزية أو على السفن الأوربية بقدر ما اعتمدوا على سفنهم الخاصة بحمل هذه البضائع ، بل إنّ التنافس بين فرنسا وإنجلترا قد أكسب أهل الزبارة أهمية خاصة ، ذلك أنّ الفرنسيين أرسلوا أسطولاً قوياً إلى الخليج العربي ليعترضوا بريد شركة الهند الشرقية الإنجليزية وليهاجموا السفن الإنجليزية ، وعلى هذا فقد رأى الإنجليز أنه من الأسلم لبريدهم أن يسافر مع المراكب العربية لانشغالهم في هذا الصراع ، وقد استفادت مدينة الزبارة من ذلك النقل الذي شمل الرجال إلى جانب البريد ، وكان طريق البريد يمر عبر الخليج العربي وكذلك عبر الطريق الصحراوي من مسقط إلى حلب ماراً بالزبارة ثم إلى الكويت وبالتالي البصرة^(١).

ولم يأت عام ١٧٨٠م حتى كان آل خليفة في الزبارة يمتلكون الأسطول الذي كان يبحر من الهند ليعود محملاً بالبضائع لإنزالها في الموانئ العتبية (الزبارة والكويت) والبصرة ، وكانت مسقط في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي دون شك هي مركز التجارة الرئيس ، وذات تجارة واسعة ، وهي ميناء يمتلك عدداً كبيراً من السفن التجارية تتجر مع سورت وبومباي وجوا ، على ساحل الملبار ، ومع المخا وجدة على البحر الأحمر ، وهي المستودع العظيم ، وتعد مخزناً للبضائع الواردة من السفن التي

(١) Desire, Lacroix : Histoire De Napoleon , Paris , 1902. P. 440.

تأتي من تلك الأماكن وإلى هذا الميناء ترد جميع السفن من موانئ بلاد فارس ومن البصرة والموانئ العربية الواقعة على ضفاف الخليج العربي ومن سواحل كرمان خارج الخليج العربي حتى نهر السند ومن أماكن متعددة ومجاورة لذلك النهر^(١).
 ويعني ذلك سيطرة الأسطول العربي ، أسطول مسقط والعتوب في الكويت والزبارة فهم المحتكرون لنقل البضائع والسلع من مسقط والهند إلى الخليج العربي^(٢).
 غير أنه لا يمكن تحديد مقدار التجارة التي كانت تنقلها سفن آل خليفة أو القدر الذي تتأله الزبارة من تجارة الخليج العربي تلك^(٣).

فكانت الزبارة بفضل موقعها الجغرافي المهم كما أسلفنا هي المركز الثاني لتجارة آل خليفة بعد الكويت في نقل جزء كبير من البضائع منها على سبيل المثال لالحصر قهوة المخا ، كما تنقل أيضاً من مسقط كمية من السكر والفلفل الأسود والتوابل والرز البنغالي ، وكانت تصدر كميات من هذه البضائع إلى البصرة ، أما سفن آل خليفة التي تنقل هذه البضائع إلى البصرة ، فإنها تعود محملة بالتمور والحنطة لاستهلاك سكان البحرين ثم بمواد تجارية أخرى لسوق سورت بالهند ، وقد بلغ نشاط تجارة الزبارة أزهى عصوره حيث استحوذت على الواردات الهندية وجمعت أموالاً طائلة عن تلك الواردات التي لم يستطع أحد إحصاء ريعها خلال تلك الحقبة.
 لذلك كانت الزبارة هي مركز النشاط التجاري لآل خليفة وللأسرات العتبية الذين كانوا معهم حتى عام ١٧٨٢م أي قبل احتلال البحرين عام ١٧٨٣م^(٤).

(١) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٢٨٢-٢٨٤ .

(٢) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ ، نقلاً عن (مختارات سلعها ، ص ٤٠٩) .

(٣) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٢٨٣-٢٨٤ .

(٤) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٢٨٦-٢٨٧ ، نقلاً عن (تقرير مالكولم «Macolm» من مختارات سلعها) ص ٤٤٥ .

غير أنّ الزبارة بحكم كونها ميناء على شاطئ اللؤلؤ ، فقد ساهم رجالها في الغوص زيادة في الثراء ولكن لايعرف نصيب الزبارة في هذا الميدان ولكن بعد شراء آل خليفة مراكبهم الكبيرة التي كانت تتاجر مع الهند صارت الزبارة ومعها ميناء القطيف بمثابة مركز لتوزيع تلك البضائع بين قبائل بني خالد في الأحساء ثم أخذت القوافل تنقل قهوة المخا وغيرها من البضائع المختلفة من الزبارة إلى الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى وكذلك إلى أماكن كثيرة تقع تحت النفوذ السعودي . وهذا العمل أدى إلى تكدس الثروات الطائلة في مدينة الزبارة ، مما أثار غيرة القوى العربية في الخليج العربي ، التابعة للفرس وخاصة بني كعب وعرب بوشهر التي كانت لها عداوات قديمة مع آل خليفة في الزبارة وذلك للاستحواذ على ما بها من ثروات طائلة^(١).

ومن هنا بدأ الخصوم هجومهم جميعاً وكان أشهرهم عرب بوشهر وبنديق وبنو كعب كما سبق ذكره ، ونتيجة لهذا الصراع استطاع العتوب (آل خليفة) احتلال البحرين سنة ١٧٨٣م ، وترتب على ذلك اتساع نفوذهم في المنطقة ووجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع عرب الساحل الفارسي وخاصة مع الشيخ راشد حاكم رأس الخيمة وابنه عبدالله حاكم هرمز . غير أنّ الخطر تمثل في سلطان مسقط الذي ادعى السيادة على تلك الجزر ، وكان من نتائج أطماعه تدخل السعوديين لحسم الموقف لصالح البحرين^(٢) ، دون الدخول في تفاصيل ذلك الخلاف ؛ لأنه خارج عن موضوع البحث ، ويحتاج إلى بحث مستقل .

ومن الواضح أنّ تجارة البحرين لم تكن عظيمة قبل احتلال آل خليفة لها عام

(١) ولزبد من الإيضاح انظر : أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٢) الوثيقة : العدد الأول : السنة الأولى ، رمضان ١٤٠٢هـ/يوليو ١٩٨٢م ، ص ١٨٩ .

١٧٨٣م ، اللهم إلا من اللآلئ ، ويبدو أنّ تجارة آل خليفة إليها كانت ذات شطرين :

١ - الغوص على اللؤلؤ وتسويقه .

٢ - التجارة البحرية مع الهند ومسقط وموانئ الخليج العربي .

إلا أنّ آل خليفة فيما يتعلق بالغوص على اللؤلؤ على ما يبدو لم يحدثوا أي تطور في عملية الغوص المعتادة عبر قرون التاريخ على الرغم من أنّ هذا اللؤلؤ كان ملفتاً لانتباه الكثير من أغنياء تجار العرب المقيمين في البحرين وغيرها وقد عمل به كثير من السكان العرب الناشطين والمقيمين في ذلك المكان^(١).

لذلك قنن للغواص وقت الغوص لاستخراج اللؤلؤ إذا دفئ البحر ؛ لأنهم لا يطيقون مزاولة العمل مع شدة البرد .

وكان موسم الغوص نحو أربعة أشهر تتم خلال أشهر مايو ، ويونيه ، ويوليه وأغسطس وسبتمبر ، وهي أشهر الصيف من كل عام ، وفي هذه الأشهر تكون مياه الخليج دافئة أما كمية اللآلئ الموسمية التي كان يتم جمعها فيبلغ ثمنها خمسمائة ألف روبية (٥٠٠ر٠٠٠) من روبيات بومباي سنوياً تقريباً وكان هذا المال يوزع بنسب معينة بين التجار وأصحاب السفن المستخدمة في الغوص وكذلك بحارتها والغواصين^(٢).

يتحدث أبوحاكمه في تاريخ الكويت الجزء الأول القسم الأول « على الرغم من أننا لانملك الوسائل لكي نقدر كمية الواردات بالضبط في البحرين خلال العقد التاسع من القرن الثامن عشر الميلادي ، فإننا أحسن حالاً في هذه الناحية عند نهاية القرن ، حين نعرف أنّ الواردات من البضائع الهندية كانت تقدر سنوياً بمبلغ مليون روبية

(١) أبوحاكمه : المرجع السابق ، ص ٢٨٢-٢٨٣ .

(٢) عبدالعزيز الرشيد : تاريخ الكويت ، ص ٤٧-٦٥ .

J, S. Buckingham : Trovelsin Assyara , etc, p. 254-257.

- أبوحاكمه : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

ونعرف أيضاً أنّ هذا الوارد كان يوازيه صادر من اللآلئ يصل إلى نفس المبلغ^(١).
وعندما توفر لآل خليفة في البحرين شراء كثير من المراكب الكبيرة بعد احتلالها عقدوا مع الهند علاقات تجارية ، وأصبح بدورهم يأتون بالبضائع من الهند في تلك المراكب ، وكانت هذه البضائع المستوردة من نوعين : أحدهما كان للاستهلاك المحلي اليومي لسكان البحرين • وثانيهما يصدر إلى أسواق بغداد وحلب، عن طريق البصرة والكويت إضافة إلى قيام عتوب البحرين (آل خليفة) بعلاقات تجارية ممتازة مع حكومة مسقط على إثرها أصبحت سفن البحرين تنقل منها قهوة المخا اليمنية وكان جزء من هذه القهوة يصدر إلى سوق البصرة ، كما كانت سفن البحرين كذلك تنقل من مسقط كميات من السكر والفلفل الأسود والتوابل والرز البنغالي وكانت تصدر كميات من هذه البضاعة المستوردة إلى البصرة كذلك .

وكانت سفن آل خليفة بالبحرين التي تنقل هذه البضائع إلى البصرة تعود محملة من البصرة بالتمور ، والحنطة للاستهلاك المحلي لسكان البحرين ، ثم بمواد تجارية أخرى مطلوبة لسوق سورت بالهند وهذه البضائع هي: «النحاس والزرنيخ والعفص» .
ويتحدث مانيسستي وجونز عن تلك البضائع الهندية الأوربية التي كانت تنقل بواسطة سفن آل خليفة إلى البحرين فيقولان :

«إنّ هذه المواد تحمل بطريقة مباشرة من سورت إلى البحرين ، والتي تنقل من أجل الاستهلاك المحلي في تلك الجزيرة تتكون في الدرجة الأولى من كميات قليلة من نيلة سورت وغير ذلك من المنسوجات ثم منسوجات كوجرات والشيت الملون للمفروشات والشال وخشب الغاب الهندي والصفائح والرصاص والحديد» .

أما البضاعة الصادرة لسورت الهندية والمطلوبة من بغداد وحلب ، فكانت مواد

(١) أبوحاكمة : المرجع السابق ، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

تجارية مختلفة من منسوجات قطنية ومن غزل القطن ، ونيلة سورت وغير ذلك من البهارات^(١).

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة حقبة مهمة من النشاط التجاري لآل خليفة في الزبارة وقد نجحوا في ميدان التجارة لموقعهم الجغرافي المميز ، أدى ذلك إلى ثرائهم عن طريق التجارة البرية والبحرية ، وقد ساهم ساحل شرقي الجزيرة العربية في جذب التجار من الهندية والأوربية الماريتين عبر مدينة الزبارة ، فزاد من أهميتها ونشاطها التجاري ونمو وازدهار تجارتها عبر تلك القنوات ، ولانتمى دور بني خالد البارز في حماية هؤلاء ، فقد كانت حمايتهم لهم خير معين في تطوير وتشجيع تجارتهم ، غير أن آل خليفة فاقوا بني خالد فأصبحوا هم رواد تجارة شرقي الجزيرة العربية بلا منازع دون غيرهم من بني خالد لانشغالهم بالصراع القادم من نجد .

لذلك فاق أسطولهم البحري أسطول عرب الخليج ، وأصبح أقوى الأساطيل في مياه الخليج حتى أنهم في عام ١٧٨٢م تحدوا جميع القوى البحرية في الخليج العربي ولم تستطع سفن عرب بوشهر أو البندريق أو بني كعب مقارعتهم ونزالهم . ويؤكد على ذلك (مستر لاتوش) المعاصر والمقيم بالبصرة في رسالة بعث بها إلى لندن عام ١٧٨٢م بهذا الصدد فيقول فيها : «هاجم أهالي الزبارة والقرين^(٢) مؤخراً البحرين ونهبوها واستولوا على عدة سفن تابعة لبوشهر وبندريق في مدخل شط العرب ورد الشيخ نصر البوشهري على ذلك بجمع قوة بحرية وأخرى برية من بوشهر وبندريق وموانئ فارسية أخرى وتظاهر (الشيخ نصر) بأنه ينوي الثأر لهذه الاعتداءات

(١) أبوحاكمه : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ، نقلاً عن (مختارات سلعها ص ٤٤٥-٤٠٨) .

(٢) القرين : الكويت .

بشن هجوم على الزبارة وكتب إلى علي ميرزا على خان^(١) في أصفهان كي يمدّه بالمال . ورغم هذا الحماس يقال بأنه (الشيخ نصر) أرسل مؤخراً إلى القرين في طلب الصلح ولكن الشيخ (شيخ القرين) رفض الموافقة على هذا الطلب مالم يدفع له الشيخ نصر نصف دخل البحرين وأيضاً إتاوة سنوية كبيرة عن بوشهر^(٢) لذلك أصبحوا لا يخشون من القوة التي يهددهم (الشيخ نصر) بجمعها ضدهم^(٣) .

وقد قامت سفن أهل الزبارة برحلات مكوكية دون توقف في الطريق للتجارة والنقل من الخليج إلى الهند دون خوف على تجارتهم من الدول الأوروبية التي تتاجر مع الهند ، لذلك نراهم من خلال هذا البحث أنهم قد احتكروا النقل البحري على طول الخليج العربي إضافة إلى مرور القوافل البرية عبر الزبارة والمدن العتبية الأخرى وبالتالي استطاعت كذلك احتواء التجارة الداخلية لشبه الجزيرة العربية لانشغال فرنسا وإنجلترا في الصراع حول سيادة البحر الأحمر .

وفي ظل هذه الأحداث فقد اكتسبت الزبارة أهمية عظيمة في مجال النقل البري والبحري عبر الخليج مما زاد في ثراء أهل مدينة الزبارة ثراء واسعاً لأمثال له ، إضافة إلى إخوانهم عتوب الكويت الذين اقترن تاريخهم بالزبارة والمشاركة التجارية كما سبق ذكره حتى انتقل آل خليفة إلى البحرين عندما وضعوا أيديهم على أغنى المناطق المنتجة للؤلؤ في الخليج العربي ، مما أضاف لهم مركزاً مهماً من مراكز النشاط التجاري وكسباً اقتصادياً آخر ، وكان ذلك حلماً من أحلامهم ظل يراودهم منذ انتقالهم من الكويت إلى الزبارة وقد تحقق لهم ذلك بفضل الله ثم بتفوقهم على خصومهم .

(١) حاكم أصفهان آنذاك .

(٢) رسالة لاتوش ، المقيم في البصرة إلى ديوان الإدارة بلندن ، من سجلات الوكالة ، مجلد إيران والخليج الفارسي ، رقم ١٧ ، رقم تسجيل الإرسال ١٢٣ ، ٤ نوفمبر ١٧٨٢ م .

(٣) لاتوش : المصدر السابق .